علي أحمد باكثير

رائد التنوير السلفي الإصلاحي في حضرموت

د. محمد أبو بكر حميد

بدأ علي أحمد باكثير حياته العملية في وطنه الأصلي «حضرموت» مديراً للمدرسة الوحيدة في مدينته سيئون سنة ١٣٤٤هـ/ ١٩٢٥م، بعد أن درس أمهات الكتب العربية في اللغة والنحو والعقيدة والأدب على يدي عمه العلامة الشيخ محمد بن محمد باكثير (١٢٨٣-١٣٥٥هـ/١٨٦٦-١٩٣٦م)، ونهل من مكتبته الثرية العامرة التي وردت معظم كتبها من مصر.

واطلع في هذه الفترة المبكرة من عمره على مؤلفات ابن تيمية وابن القيم ومحمد بن عبد الوهاب فقاده ذلك إلى الإعجاب بأعلام المدرسة السلفية الحديثة ودعوتها لإصلاح المجتمع الإسلامي متمثلةً في شخصيتي السيد جمال الدين الأفغاني والإمام محمد عبده ومجلتهما الشهيرة (العروة الوثقى) التي تتلمذ عليها في مكتبة عمه.

فلا عجب أن يتصل بمن عاصرهم من قادة هذه المدرسة السلفية التنويرية في مصر فيراسل السيد محمد رشيد رضا صاحب مجلة (المنار) و السيد محب الدين الخطيب صاحب مجلة (الفتح) إعجابا بفكرهما وبمجلتيهما الذائعتي الصيت في العالم الإسلامي آنذاك، كما راسل الأمير شكيب أرسلان في جنيف، ووجد أنه آن الأوان أن يدعو في وطنه حضرموت لما دعوا إليه، وأن يكون امتدادا لهم حتى يعين وطنه على

اللحاق بركب الحضارة بالعودة إلى المنابع الأصيلة، ومحاربة الجهل والتخلف ودروشة الصوفية والبدع الباطلة والمعتقدات الفاسدة.

التجديد التربوي والفكري

آمن باكثير بأن لا سبيل لتحقيق غايته في خدمة مجتمعه إلا بالعلم، وذلك من خلال الأساليب الحديثة في التربية والتعليم وإنشاء جيل جديد لا يفكر بطريقة آبائه، فبدأ عمله في المدرسة بوضع نظام جديد للتعليم يعتمد على الفهم لا الحفظ، ويعمل بوسائل التربية الحديثة، وقد عبر عن هذا الاتجاه في شعره الذي نشره بين تلاميذه:

إن برنامج تدريسكم
ليس برنامج قوم مرتقين
ترهقون النشء بالحفظ فمن
حفظ تقرير إلى حفظ متون
ليس في ذاك لهم من صالح
إنه يقتل فهم الناشئين[1]

وكانت المدرسة قبل أن يتولى إدارتها تقتصر على تدريس الفقه والحديث والنحو بالأسلوب التقليدي في الحشو الذي لا يتفق مع سن التلاميذ وقدراتهم على الفهم، فبسّط أسلوب التعليم وأدخل عليه مواد جديدة كالتاريخ والجغرافيا والإنشاء والأدب والشعر، فثارت عليه ثائرة بعض الجامدين، وعدّوا فعله ذلك مروقاً على ما تعودوا عليه في تعليم الأبناء، وعدّه الغلاظ منهم خروجاً عن منهج أسلافهم وأوغروا عليه صدور العامة. وكانت بالنسبة لبعضهم فرصة للنيل من هذا الشاب الذي جاء يبشر بأفكار جديدة، فاتهموه بأنه يريد أن يعلمهم دينهم فكان يدافع عن نفسه ويبسط ذلك في أشعاره الكثيرة:

أنا لم أدع إلى غير الهدى
وإلى غير نهوض المسلمين
أنقمتم دعوة الناس إلى
سنة المختار خير المرسلين؟[2]

ومن حسن الحظ أننا عثرنا على مذكرة يوميات كان يسجل فيها كل يوم تقريباً ما يحدث في المدرسة وما يستحدثه فيها إدارياً وتربوياً وتعليمياً. وما كتبه في تلك المذكرة يعد وثيقة مهمة للتجديد الذي أحدثه في تاريخ التعليم الأهلي في حضرموت في تلك المرحلة المبكرة التي سبقت ظهور التعليم النظامي الرسمي من جهة، كما تكشف هذه اليوميات عن جانب آخر في عبقرية هذا الشاب الذي كان في السابعة عشرة من عمره واستطاع بجدارة علمية واقتدار إداري وتربوي أن يصبح مديراً لمدرسة هي فريدة من نوعها في تلك البلاد.

كتب هذه المذكرات على مدى ثلاثة شهور في كراسة تحمل اسم (المذكرة اليومية المصرية لسنة ١٩٢٥م)، وهي من دلائل التواصل التعليمي والثقافي بين مصر وحضرموت وقتذاك. كان أول يوم في هذه اليوميات ٢٦ ربيع الأول ١٣٤٤هـ، الموافق ١٤أكتوبر ١٩٢٥م، وآخر يوم فيها ١٦ جمادى الثانية ١٣٤٤هـ، الموافق ٣١ ديسمبر ١٩٢٥م. ولعل نموذجاً مما كتبه من ملاحظات على منهج التدريس في أول يوم من هذه اليوميات يوضح لنا مدى وعي هذا الشاب النابغة بأحدث طرق التدريس فكان مما دوّنه في ذلك اليوم قوله:

(● لا يسوغ تقرير رسالة النحو لكتابة وحفظ ذلك التقرير؛ لأن ذلك مما يجعل التلامذة يتكلون على الألفاظ ولا يعبؤون بالمعاني فينشؤون على ذلك وهو مذموم.

● تقريب فهم مسائل النحو بكتابة أمثلتها في السبورة ليشاهدوا ذلك مشاهدة حية.

● تعليم الحساب على النسق الجديد وهو إجراء المسائل عند تعليم القواعد، لا تعليم القواعد فقط.

● لاحظنا أن القسم الثالث منحطون جداً في الإملاء فبحثنا عن سبب ذلك، فوجدناه ناشئاً من قلة اعتناء الأساتذة بفن الإملاء، ومن تعليمهم إياه في الألواح الأردوازيه (الألواح الصغيرة)..... ولا يناسبهم إلا تعليمهم في السبورة وشرح مثل هذه الأشياء ليس يليق باليوميات».

ونفهم من هذه اليوميات أنه كان يقوم بتدريس عدة مواد منها الحساب والنحو والإملاء).

ونظم في هذه الفترة العديد من القصائد التي يدعو فيها زملاءه الأساتذة والطلبة في المدرسة إلى الصحوة والتجديد والجد في طلب العلم، ويحذرهم من الجمود على القديم ويأمرهم أن ينطلقوا إلى العلوم العصرية، فيلقي في المدرسة قصيدة طويلة في ٧٦ بيتا نظمها على مطلع قصيدة البرعي الدالية الشهيرة (تنبهوا يارقود) يقول فيها:

تنبهوا يا رقودْ
إلى متى ذا الجمود؟
إلى متى ذا التواني
إلى متى ذا القعود؟
أحوالنا في انحطاط
وعلمنا لا يزيد
(فقه) و(نحو) وباقي الـ
علوم منا طريد[٣]

ومن حربه على الجمود ودعوته إلى إنشاء جيل يتسلح بالعلم، يُذكِّر باكثير مجتمعه أن التعليم لا يفيد بدون تربية، والتربية لا تكتمل بدون تعليم المرأة لأنها المدرسة الأولى للطفل، فيصرخ داعيا لهذا الواجب الشرعي:

كيف السبيل إلى النهو
ض وأمهات النشء عور؟
أبدون تربية الإنا
ث تفيد تربية الذكور؟
أيلدن أحياءً وهن
من الجهالة في قبور؟
كلا ورب العرش كيف
يكون من ظلماء نور؟[٤]

وكان من أوائل من دعا لتعليم البنات في حضرموت:

فيم غادرتم البنات على جهل
وقمتم تعلمون البنينا؟
هل أقمتم مدارسا للواتي
إذ أقمتم مدارسا للذينا؟[٥]

ويروي لنا السيد جعفر بن محمد السقاف أحد تلامذته في هذه المدرسة أنه تعلم تحسين الخط على يديه. وكان باكثير قد تعلم فنون الخط في هذه المدرسة نفسها على يد أستاذه العلامة محمد بن عوض بافضل الذي انبهر بعبقرية تلميذه فأنشأ بيتاً من الشعر وكتبه على السبورة بخطه الجميل وطلب من التلاميذ أن يتدربوا على كتابته:

(عليٌ) من نوادر ذا الزمان
له فهمٌ وغوص في المعاني

ويقول السقاف عن نزعة باكثير السلفية: (ثم عرفته في زاوية عمه العلامة محمد بن محمد باكثير بمسجد قيدان بسيئون حيث كنا نصلي التراويح. فكنت أراه ينكب على قراءة «إحياء علوم الدين» للغزالي في فترات استراحات ركعات التراويح العشرين. وبعد انتهائه من قراءة إحياء علوم الدين وجدت أنه كتب بخطه المرسوم على الصفحة الأخيرة من المجلد الأخير:

خسر العلم منك أفضل هاد
مذ تشربت نزعةً صوفية)[٦]

وفي هذه الفترة تشتد الحملة عليه وتزداد معاناته على المستوى الشخصي والفكري والاجتماعي، حيث فقد سنده الأكبر والده الشيخ الوجيه أحمد بن محمد باكثير في ١٣٤٣/٧/١٠هـ، الموافق ١٩٢٥/٢/٣م. وكان قد تزوج زواجاً غير موفق في ١٣٤٤/٣/٨هـ، من فتاة تدعى سلامة أحمد عوض شيبان أنجبت له طفلة في ١٣٤٥/٤/٢٩هـ، توفيت بعد عدة أيام من ولادتها وبموتها كان الانفصال عن أمها. وقد تزامن عناد المنكرين لفكره والحاسدين لنبوغه مع هذه الظروف وبلغ ذروته أثناء سعيه للزواج من فتاة أخرى يحبها، وكان لهؤلاء دور في ذلك صوره بوضوح في باكورة مسرحياته وهي مسرحية (همام أو في بلاد الأحقاف)

وأثناء اشتداد هذه المحنة عليه في سيئون بحضرموت يهزه الشوق لأمه في سورابايا مسقط رأسه بإندونيسيا، فينظم قصيدة في ١٣٤٤/١٢/٢٥هـ الموافق ١٩٢٦/٧/٦م في ٢٦بيتاً يعبر فيها عن هذا الحنين ويؤكد إخلاصه لحضرموت مهما واجه من صعاب فيها:

سُرباي وُدك في فؤادي لم يحُل
غيري يحول وداده وسوايا
سُرباي إنك موطنٌ لولادتي
ومحلُ تربيتي ومهدُ صبايا
لكن لي وطنا يعز فراقه
كيف السبيلُ لذاك وهو حمايا؟
هو حضرموتُ وما عنيتُ سوى رُبا
سيؤون فهي مرابعي ورُبايا
فيها بلغتُ الحُلم، فيها أبصرتْ
(نُور) المعارف والهدى عينايا
وعرفت أحوال الحياة وسرها
وتلوت من سُور المكارم غايا

ثم يعرّج على ما أصابه في وطنه من ظلم الجهلة بالدين والمتخلفين والجامدين على التقليد:

سيؤون لي وطن وديني حبها
ولو أنها قطعت لديك عُرايا
إن مسني ضيمٌ بها فلأنني
جاورتُ فيها المُخبثين طوايا
ما إن رأيتُ أقلَّ منهم خبرة
وأشدَّ تقليدا وأسمجَ رايا
جهلوا العلوم فأنكروها إذ رأوا
أجسامهم من بُردهن عرايا
هجم الجمودُ عليهمُ فاستسلموا
وغدوا لغُزاة الجمود سبايا [٧]

وتبلغ هذه الظروف الصعبة ذروتها سنة ١٣٤٥هـ/١٩٢٦م فتضطره للسفر إلى إندونيسيا حيث يوجد والد الفتاة وحيث توجد والدته للاستعانة بها في نيل وطره.

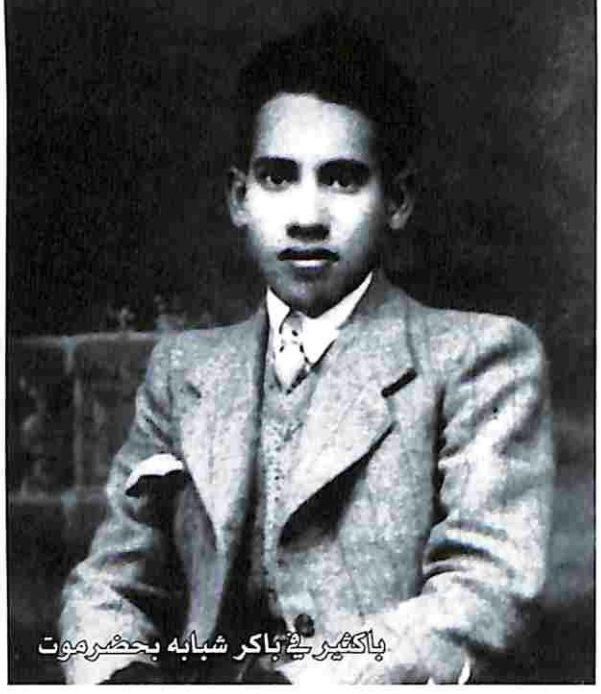

باكثير في باكر شبابه بحضرموت

السفر إلى إندونيسيا

رفع الشاب علي أحمد باكثير جناحيه عن حضرموت حاملا معه أشواقه لأمه ولموطن مولده، وحبه للفتاة نور سعيد عوض باسلامة، وهموم قومه في وطنهم ومهاجرهم. وفي ١٣٤٥/٨/١٥هـ الموافق ١٩٢٧/٢/١٧م يغادر باكثير سيئون عاصمة السلطنة الكثيرية الحضرمية التي تقع في قلب وادي حضرموت في رحلة شاقة على الجمال والحمير تستغرق أياماً إلى مدينة المكلا الساحلية عاصمة السلطنة القعيطية الحضرمية (وصف هذه الرحلة في مسرحيته همام أو في بلاد الأحقاف).

كان البحر وسيلة اتصال الحضارم بالعالم الخارجي. فلم تكن السيارات قد ظهرت بعد، ولم يكن بعد قد أنشئ مطار لأي من السلطنتين الحضرميتين. وهكذا كان السفر إلى الجزر الإندونيسية والهند يتم غالباً عبر عدن، وأغلب الظن أن هذا ما فعله باكثير في رحلة عودته إلى إندونيسيا وإن لم يرد ذكر عدن فيما اطلعنا عليه من شعره ونثره عن هذه الرحلة. فبعد إبحار يومين من المكلا إلى عدن، فالرحلة من ميناء عدن إلى إندونيسيا عبر سنغافورة على متن بواخر شركات تجوب المستعمرات البريطانية كانت تستغرق حوالي خمسة عشر يوماً. وهكذا نجد أن رحلة باكثير من سيئون إلى سورابايا استغرقت أكثر من عشرين يوماً أكثرها في البحر، وهي المسافة التي كان يقطعها المئات بل الآلاف من المهاجرين الحضارم إلى جزر الهند الشرقية في ذلك الوقت.

وصل علي أحمد باكثير إلى إندونيسيا وقد تفاقم الخلاف وانتشرت الفتنة التي أشعلها المستعمر بين قومه الحضارم الذين دخلوا منذ قرون إلى تلك الجزر النائية طلبا للرزق الحلال لا يحملون معهم سوى ما اشتهروا به من سمعة الصدق والأمانة. كانت جزر الهند الشرقية هي البلاد الوحيدة التي انتشر فيها الإسلام على يد قوم باكثير بالقدوة الحسنة دون أن تطأها سنابك خيول الفاتحين، أقاموا فيها دولا ونشروا حضارة الإسلام ولغة القرآن، وأصدروا بها الصحف والمجلات والكتب، وأحدثوا نهضة فكرية وثقافية للحرف العربي لم تلق حقها من البحث والدراسة إلى الآن. كان باكثير على علم بأنه يغادر حضرموت من هَمٍّ أصغر إلى هَمٍّ أكبر في إندونيسيا (شغله كثيرا واحتل مساحة كبيرة من أدبه في مراحله الحضرمية والعدنية والحجازية)، و نظم في هذا الموضوع العديد من القصائد التي يذم في بعضها عيوب قومه وفي بعضها الآخر يشيد بمحامدهم مُفاخرا بها:

أثـرى بها قومـي وشـادُوا دولـةً
للـديـن طاولـت الـسَّـمـاء سُمُـوقا

نشرُوا بها (الـقُـرآن) فـازدادت به
مـرأى على المـرأى الأنـيـق أنيقا

لم يُلهِهمْ هـمُ ابـتـغـاء الـرِّزق أن
قضـوا لـديـنـهـم الـقـويـم حقُـوقا

تـركوا لهمُ بين الأهـالي حُرمـةً
كـادُوا بها أن يعبُـدُوا المخلُـوقا[٨]

كان باكثير يرى أن الخلاف المصطنع بين العلويين والإرشاديين هدفه إشغالهم عن رسالتهم في خدمة دينهم، ذلك لأن العلويين والإرشاديين هم جميعا من أبناء الشعب الحضرمي يدينون بمذهب واحد هو مذهب الإمام الشافعي، وخلافاتهم جانبية لا تمس جوهر العقيدة أو المذهب مثل قضية الكفاءة في النسب عند الزواج وتقبيل الأيدي واستخدام لقب «السيد». وهي أمور رأى السادة العلويون أنها يجب أن تؤدى لهم وحدهم بحكم نسبهم النبوي الشريف.

وقد ثار على إثر ذلك جدال طويل. ومعارك طاحنة في المجالس والمنتديات وعلى صفحات الصحف والمجلات في المهجر. وأسست (جمعية الإرشاد) التي انضم إليها كثير من أبناء طبقات المجتمع الحضرمي هناك سنة ١٣٣٢هـ/١٩١٤م لترفع لواء المعارضة لتلك الدعوة ثم ما لبث العلويون أن أسسوا (جمعية الرابطة العلوية) سنة ١٣٤٥هـ/١٩٢٧م، واحتدم الجدل بين الطرفين ووصل صداه إلى قادة الدعوة والإصلاح في العالم الإسلامي فكتب الأمير شكيب أرسلان في مجلة (الفتح) التي يصدرها الأستاذ محب الدين الخطيب في مصر. وكتب الإمام محمد رشيد رضا في مجلته (المنار) مقالات للتهدئة. وأرسل الملك عبدالعزيز آل سعود مبعوثاً منه لإنهاء الخلاف.

ثم وصل مفتي حضرموت العلامة السيد عبدالرحمن ابن عبيدالله السقاف إلى إندونيسيا في ١٣٤٥/٨/٩هـ الموافق ١٩٢٧/٢/١٨م. وليس مصادفة -في رأيي- أن يكون علي أحمد باكثير هناك في هذه الفترة الحرجة، ولا نعتقد أن الأسباب العاطفية وحدها هي التي دفعته للسفر في هذا التوقيت بالذات. ونرجح أن لأستاذه السيد محمد رشيد رضا دوراً في ذلك. ولعل مفتي حضرموت- الذي كان متعاطفا معه في آرائه ويعيش معه في سيئون نفسها- قد أبلغه بعزمه على السفر للصلح بين الفريقين. ومما يؤكد رأينا هذا بأنهما كانا على اتفاق، أن باكثير كان في مقدمة مستقبلي علامة حضرموت عند وصوله إلى مدينة بتافيا ثم اصطحابه له في ١٣٤٦/٨/٣٠هـ الموافق ١٩٢٨/٢/٢١م إلى مدينة سورابايا (مسقط رأس باكثير) حيث ألقى خطابا بليغا على جمع كبير من العرب في مسجد الصرنج في ليلة ١٨ رمضان ١٣٤٦هـ الموافق ٩ مارس ١٩٢٨م في محاولة لإخماد الفتنة وتوحيد الصف ثم غادر مفتي حضرموت المسجد تلك الليلة إلى بيت آل باكثير حيث ألقى علي أحمد باكثير أمام حشد المدعوين على شرفه قصيدة تقع في ٥٨ بيتاً يحييه ويشكره فيها على جهوده لجمع الشمل، ولموقفه الوسطي الرافض للتعصب ومنها قوله:

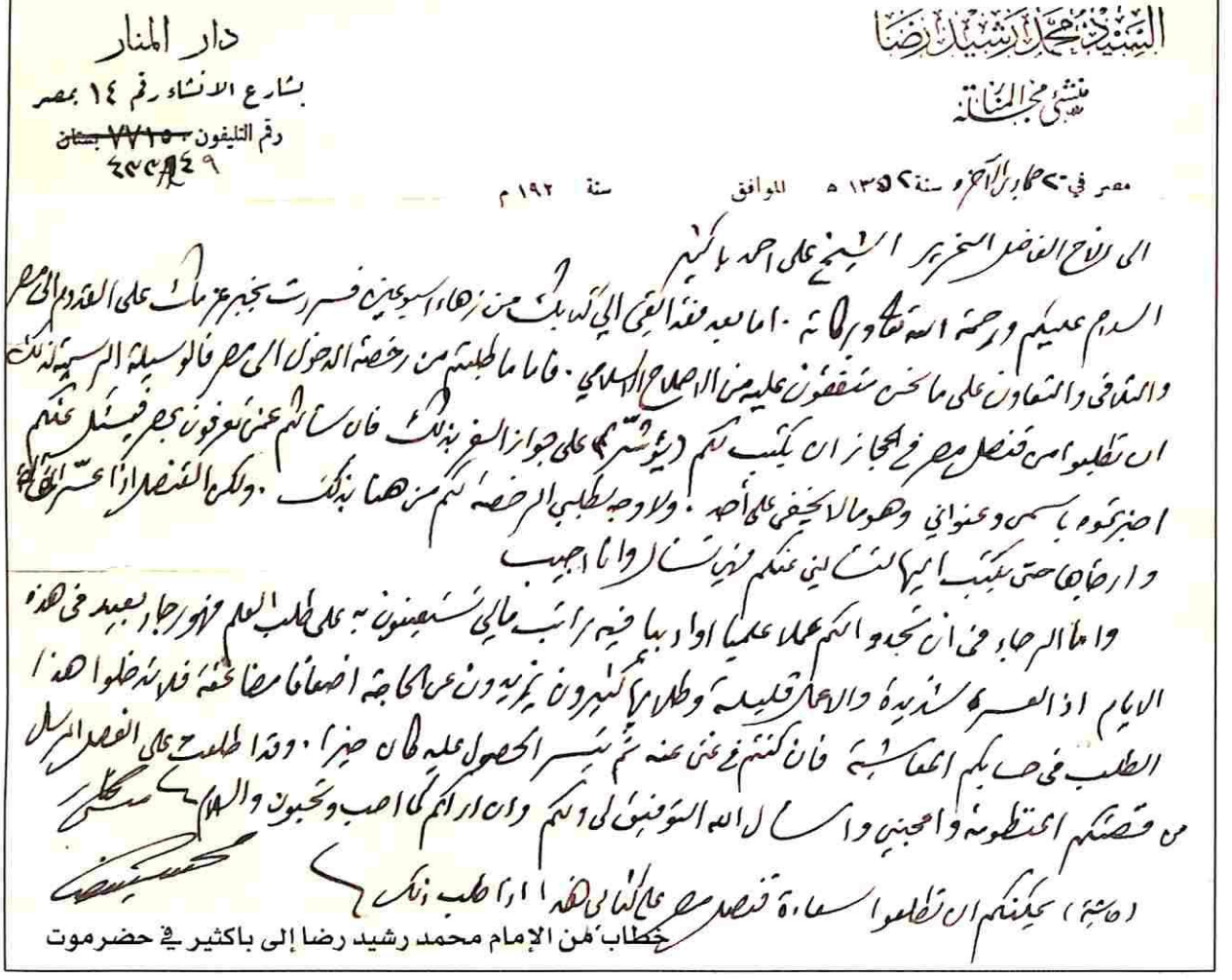

السيد محمد رشيد رضا
منشئ مجلة المنار

دار المنار
بشارع الانشاء رقم ١٤ بمصر
رقم التليفون ~~٧٧١٥٠ بستان~~ ٤٤٥٤٩

مصر في ٢٠ جمادى الآخرة سنة ١٣٥٢ هـ الموافق سنة ١٩٢ م

الى الأخ الفاضل الشيخ علي أحمد باكثير

السلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته. أما بعد فقد ألقي إلي كتابك من ... فسررت بعزمك على القدوم الى مصر والتلاقي والتعاون على ما نحن مشتغلون عليه من الاصلاح الاسلامي. فأما ما طلبتم من رخصة الدخول الى مصر فالوسيلة الرسمية لذلك ان تطلبوا من قنصل مصر في الحجاز ان يكتب لكم (ويؤشر) على جواز السفر بذلك فان سألكم عمن تعرفون بمصر فيسأل عنكم اخبرتموه باسمي وعنواني وهو ما لا يخفى على أحد. ولا وجه لطلبي الرخصة لكم من هنا بذلك. ولكن القنصل اذا احتاج الى [illegible] وارجاعها حتى يكتب اليها لك [illegible] عنكم [illegible] وانا اجيب

وأما الرجاء في ان تجدوا لكم عملا علميا أو أدبيا فيه راتب مالي تستعينون به على طلب العلم فهو رجاء بعيد في هذه الايام اذ العسرة شديدة والاعمال قليلة وطلابها كثيرون يزيدون عن الحاجة اضعافا مضاعفة فلا تدخلوا هذا الطلب في حسابكم المعاشية فان كنتم في غنى عنه ثم تيسر الحصول عليه كان خيرا. وقد اطلعت على الفصل المرسل من قصتكم المنظومة وأعجبني وأسأل الله التوفيق لي ولكم وان اراكم كما احب وتحبون والسلام [illegible]

محمد رشيد

(حاشية) يمكنكم ان تطلعوا سعادة قنصل مصر على كتابي هذا اذا طلب ذلك

خطاب من الإمام محمد رشيد رضا إلى باكثير في حضرموت

لله درك من تقي
يسعى لتسوية الخصام
ما قام قبلك من دعا
لسوى التحزب والصدام
فارفع نداءك يا خطيب!
فإن أمتنا نيام
داء الجمود انساب منهم
في اللحوم وفي العظام
قم جد في هذي السبيل
انهض لتحقيق المرام

إلى أن يقول:

أنا قلت ما قد قلت عن
قلب يؤججه الضرام
يهوى الرقي لحضرموت
لمستوى المدن العظام
ويسوؤه هذا الجمو
د على شبارقها القدام [٩]

كان باكثير معه لا يفارقه في كل تنقلاته إلى المدن ذات الكثافة الحضرمية حتى تم التوصل إلى اتفاق طلب مفتي حضرموت أن يكتبه باكثير بخط يده وقد كان. ورحبت الصحف العربية التي يصدرها الطرفان بذلك الاتفاق وفي مقدمتها صحيفة حضرموت -كبرى تلك الصحف- في عددها (١٦١) الصادر في ١٦/٣/١٣٤٧هـ الموافق ٣١/٨/١٩٢٨م، وقد ظهرت آثار هذا الاتفاق متكررة في شعره على نحو ما يقول مشجعا ومفاخرا بما أنجزه قومه:

مضى زمنُ الجمود فودّعوه
ووافاكمْ زمانُ العاملينا!
زمانٌ ليس يعلو فيه إلا
عصاميٌّ جرى في السابقينا
وإن لنا مواهب ساميات
بني الأحقاف أدهشت القرونا
ألا فاستعملوها في المعالي
تنالوا في الورى المجد الأثينا

فقد لعبتَ بأدوار كبار
جدودكمُ الكرامُ السالفونا
ولو ثقفت يوماً (حضرمياً)
لجاءك آيةً في النابغينا[10]

العودة إلى حضرموت

وفي ٢٥/١٠/١٣٤٦هـ، الموافق ١٥/٤/١٩٢٨م بعد أن أمضى أربعة عشر شهراً في كنف والدته عاد منتشيا إلى حضرموت بموافقة والد الفتاة الشيخ سعيد عوض باسلامة على زواجه من محبوبته (نور). وفرحا بمشاركة مفتي حضرموت في إقرار اتفاق السلام بين الفريقين المختلفين من بني قومه. ومن واقع مراسلاته التي بين أيدينا نعلم أن زواجه بمحبوبته تم في ٢/١/١٣٤٧هـ، الموافق ٢٠/٦/١٩٢٨م فقرت به عينه وتحققت أمنيته.

وأحس الشاعر العاشق أن الزمن قد شُغل عنه. واكتملت سعادته حين رزقه الله بمولودة سماها (خديجة) وفاءً لزوجة أبيه السيدة خديجة بنت عمر محمد مهدمي التي عوضته عن حنان الأم ومحبتها منذ وصوله حضرموت. وانتقل للعيش في بيت بناه على ربوة صغيرة في قلب سيئون أطلق عليه اسم «دار السلام» حيث عدّ ظفره بحبيبته من جهة والاتفاق الذي أبرم بين بني قومه في إندونيسيا من جهة أخرى بداية سلام حقيقي في حياته. وعبر عن مشاعره في هذه الفترة القصيرة من سعادته الزوجية في عدة قصائد بلغت ذروتها في أول مسرحية يكتبها في مصر، وهي مسرحية (إخناتون ونفرتيتي) الشعرية ١٣٥٧هـ/١٩٣٨م حيث يشعر العارف بقصة زواجه ومأساتها أن مناجاة إخناتون لزوجه ما هي إلا صدى صادق لتجربة المؤلف الشخصية.

إصدار صحيفة التهذيب

وعاش شاعرنا في جنة زوجه الحبيبة أجمل سنوات حياته إذ نشطت قريحته وانقدح زناد فكره بالعديد من المشاريع والأعمال والقصائد. فحقق أجمل أعماله الإصلاحية فيما بثه من تعاليم وفكر في مجال التربية والتعليم وتطويرهما من خلال إدارته لمدرسة النهضة العلمية بسيئون. وشرع في تأليف كتاب نقدي تاريخي بعنوان (شعراء حضرموت). وراسل المجلات العربية الفكرية ونشر في بعضها نتاجه. واستكمل رسالته الأدبية والفكرية اتجاه وطنه بإصدار صحيفة شهرية أطلق عليها اسم (التهذيب)- وفي اسمها دلالة على رسالتها التربوية- وتُعد هذه الصحيفة اليوم خير مصدر للتعرف على فكر باكثير الإصلاحي السلفي في وطنه. وتوضح الخطوط العريضة لخريطة التفكير عنده. إذ تحدد مصادر تأثره الفكري والعقدي في هذه المرحلة المبكرة من حياته وتضع النقاط على الحروف للأهداف التي كان يعمل لتحقيقها في مجتمعه. كان إصدار هذه الصحيفة التي شاركه فيها جماعة من المتنورين من أبناء جيله عبئا كبيرا عليهم. فلم تكن في حضرموت حينذاك مطابع وإنما كان يسهر عليها مع زملائه يخطونها باليد وتوزع في نطاق محدود وتعلق أعداد منها في المساجد وأماكن تجمع الناس.

صدر العدد الأول من (التهذيب) في ١/٨/ ١٣٤٩هـ، الموافق ٢٢/١٢/١٩٣٠م. والأخير في ١/٥/١٣٥٠هـ. الموافق ١٤/٩/١٩٣١م. أي أنها لم تستمر أكثر من عشرة أشهر قلبت عليه بجرأتها المواجع القديمة. ولقيت مقاومة ممن أسماهم بالجامدين الذين لم يستوعبوا رسالتها أو من الذين أحسوا بخطر رسالتها عليهم.

جعلت الصحيفة شعارها الآية الكريمة ﴿ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر﴾. ولم يضع باكثير اسمه عليها لوضوح توجهه العقدي وإنما كتب عليها (يحررها نخبة من أفاضل سيئون) وجعل المدير العام المسؤول عنها رجلا من أفاضل أهل البلاد هو الأستاذ محمد ابن حسن بارجاء الذي كان يسهر الليالي. إيمانا برسالتها. يخط أعدادها بحروفه الجميلة. وقد أرسل باكثير أعداد هذه الصحيفة مجتمعة إلى أستاذه محب الدين الخطيب بالقاهرة حيث طبعها في مجلد واحد في مطبعته السلفية وكتب له مقدمة تُبارك توجهها بعنوان «ألوكة وادي الأحقاف» وصدّرها محب الدين الخطيب بسؤال وجواب من شعر باكثير على النحو التالي:

« س: ما هو التهذيب؟

ج: قبس تألق من سنا حرية

سيكون فاتحة النهوض الحضرمي

والطابع العام للصحيفة سواء من حيث الموضوعات أو الاستشهادات والمأثورات التي ترد في قضاياها تدل على مدى تأثر باكثير بروح « العروة الوثقى » التي أصدرها جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده في باريس، وروح مجلة « المنار » التي أصدرها تلميذهما محمد رشيد رضا في القاهرة بأنه لا منقذ للمجتمعات الإسلامية الرابضة في التخلف إلا بتصحيح العقيدة ونشر العلم وإيقاظ الهمم. ومن هنا لا يعدم الدارس لحياة باكثير وفكره في حضرموت أوجه التشابه بينه وبين محمد رشيد رضا في المعالم البارزة للاتجاه الإصلاحي عند كل منهما وعملهما على محاربة البدع وحث الناس على التخلي عن التوسل بأصحاب القبور، ودعوتهم إلى التوجه لله وحده. أكد لي أثر هذا التوجه المجلدات العديدة من مجلة « المنار » التي وجدتها بمنزله في حضرموت والحواشي والتعليقات الموجودة على بعض صفحاتها بخطه تدل على أنه وجد في «المنار» ما وجده أستاذه محمد رشيد رضا في «العروة الوثقى» من خلال الإيمان بأن إصلاح الأمة يأتي أولاً من خلال التربية والتعليم وتصحيح العقائد. فلا عجب إذن أن نجد «تهذيب» باكثير تزخر بهذه الموضوعات التي تقع في صميم مشكلات مجتمعه الحضرمي آنذاك، وهي موضوعات كتب بعضها باسمه الصريح والبعض الآخر باسم مستعار. وقد أبلغني بعض رفاق صباه أنه كان يحرر معظم موادها ويكتب افتتاحياتها. فنجد له مثلاً مقالات عن (قراءة البخاري في شهر رجب) و(ذكرى المولد النبوي) و(مذهبي في زيارة القبور والتوسل). كما لم تخل كتاباته من تناول بعض القضايا الاقتصادية والسياسية والأدبية. ففي افتتاحية العدد السابع يكتب مقالاً بعنوان (حركة الماكينات الرافعة في حضرموت) التي يدعو فيها لتطوير أساليب الزراعة وتنميتها باسمه الصريح، وفي العدد نفسه يكتب مقالاً باسم مستعار بعنوان (حول اضطهاد إخواننا مسلمي طرابلس) وهو عن الهجوم الوحشي الإيطالي على تلك البلاد والفظائع التي ارتكبها المستعمر بأهلها. وكان هذا المقال صدى لما كُتب عن هذا الحدث في مجلتي (المنار) و(الفتح) وخاصةً ما كتبه الأمير شكيب أرسلان في الأخيرة. وقد حيا باكثير الأمير شكيب أرسلان بعد ذلك بقصيدة طويلة نشرت في حينها في مجلة (الفتح) العدد ٢٩٦ بتاريخ ١٣٥١/٢/٥هـ الموافق ١٩٣٢/٦/٩م وبعث له شكيب أرسلان من جنيف في ١٣٥١/٦/١٠هـ، الموافق ١٩٣٢/١٠/١١م، برسالة إعجاب وتقدير.

ومن اتجاهات التجديد التي أدخلها باكثير على نظام الحياة التربوية والتعليمية في حضرموت الأناشيد المدرسية، فما أن حل موعد الاحتفال السنوي للمدرسة التي يديرها حتى نظم للتلاميذ نشيداً مُلحّناً يقول في مطلعه:

بنهضة العلم شخص العلم قد نهضا

وعنصر الجهل في أيامها انقرضا

وقد توطد ركن الدين وانتشرت

أعلامه، وبدا صبح الهدى وأضا

اليوم يوم به (سيئون) زاهية

مملوءة فرحاً إذ نالت الغرضا[١١]

◁◁ الصدام والموت والهجرة:

فكان هذا النشيد وحده مدعاةً جديدة للثورة عليه وتأليب العامة ضده. واحتدم صدام الشاعر المصلح مع الجامدين في مجتمعه بازدياد هجومهم عليه فما كان منه إلا أن رد على هؤلاء بخطبة طويلة ألقاها في يوم ١٣٤٩/١/٤هـ، الموافق ٣١ /٥/ ١٩٣٠م في الاحتفال السنوي للمدرسة في ذلك العام فكانت أول خطبة جريئة من نوعها في التصريح بموقفها السلفي التنويري ألقيت على ملأ من الناس في حضرموت ناقش فيها الاعتراضات التي ثارت عليه وكانت القشة التي قصمت ظهر البعير عندما علم هؤلاء بتلقينه التلاميذ في المدرسة نشيداً ملحناً من نظمه قائلين: إن هذا النشيد تقليد جديد وتشبه بالإفرنج. فرد باكثير بأن التسرع في الأحكام والتحليل والتحريم أكبر مخالفة لنهج السلف، وقال: (قد يشكل على بعض الناس أمر هذه الأنشودة التي لقنتها إدارة المدرسة لتلاميذها

يوم الاحتفال. ويظن أنها مخالفة لهدي السلف. ويسهل علينا أن نجيب عن ذلك بما أجاب به بعض كبار العلماء لما سئل عن ذلك فقال: «إن كل زمان له مميزات خاصة به. وعلى العاقل أن يراعي تطور الزمان وتقلب أحواله» وهذا الجواب في غاية الحسن والسداد. وهنا يجمل بي أن أقول: إنه يجب على من أراد أن يحافظ على سيرة السلف أن يعرف أولاً حقيقتها. والله يعلم أنهم لم يبلغوا تلك الرتبة العالية. ولم يصلوا إلى تلك المنازل السامية إلا بعنايتهم التامة بإصلاح قلوبهم وتطهيرها من رذائل الصفات وقبائح النزعات. واعتمادهم في كل ذلك على العلم الحقيقي الخالص من الشكوك والأوهام. فإذا ورد عليهم أمر لا عهد لهم به لم يسرعوا في الحكم بتحليله أو تحريمه. ولم يرفعوا صوت الإنكار على فاعله بمجرد النظر إليه. بل عرضوا ذلك الأمر على نظر العلم أولاً ووزنوه بميزان العقل. فإن رأوه منابذاً للعلم مخالفاً للعقل مضراً بالناس تحققوا أنه مما لا يرضى به الله ورسوله...».

وحدد باكثير في خطبته أن مجتمعه ابتلي بداءين نتيجةً لداء «التسرع» في الحكم بدون علم وهما داء «الجمود» وداء «التقليد». وعدّ الجمود أكبر خروج على منهج السلف لأنه يقتصر في العلوم الشرعية على الفقه وفي العربية على النحو. وسد النوافذ دون بقية العلوم الدينية والدنيوية. ورد على الذين يرفضون العلوم الأخرى وخاصةً تلك التي أدخلها في مدرسة النهضة بقوله: «إن التاريخ هو ديوان العبر وإن جزءاً كبيرا من كتاب الله تعالى تاريخ. وإنه لمن العيب الفاضح والعار الشائن على الرجل المسلم أن لا يعرف تاريخ الإسلام وما تقلب فيه من الأدوار... ولو تأملنا قليلاً لعرفنا أن فن الإنشاء من أهم الفنون. وأن العالم الذي لا يستطيع أن يعبر عما في ضميره أو يكتبه بعبارة فصيحة لا ينتظر أن ينتفع بعلمه أحد ولو بلغ من سعة العلم والبسطة فيه ما بلغ». وروى للمستمعين قصة مقاومة مصطفى لطفي المنفلوطي لشيوخه الأزهريين الذين حاولوا إبعاده عن الأدب واستشهد بقوله عن شيوخه الأزهريين: «وهم لا يعلمون . أحسن الله إليهم . أنهم وجميع من يدور به جدار مسجدهم حسنة من حسنات الأدب الذي ينقمون منه.. فلولا الأدب ما استطاع أئمتهم فهم آيات الكتاب المنزل واستنباط تلك الأحكام التي دونوها لهم وتركوها بين أيديهم.. ولولاه لما استطاع علماؤهم اللغويون أن يورثوهم هذه العلوم اللغوية التي يدرسون اليوم نحوها وتصريفها وبيانها في مجالس علمهم...».

أما آفة التقليد فهاجمها بضرب المثل بالذين يتبعون آراء غيرهم في الحكم على علماء الإسلام المحدثين دون تروٍ أو تمحيص فيصيبون رجاله بجهالة. ودافع عن الإمام محمد عبده الذي سماه « الشيخ الإمام حكيم الإسلام » وبرأه من الافتراءات التي كتبها عنه الشيخ يوسف بن إسماعيل النبهاني صاحب كتاب (جامع كرامات الأولياء) وتصديق بعض الناس في حضرموت لهذه الافتراءات وتبنيها دون التأكد من صحتها. ونافش باكثير جمهوره بمنطق بسيط يحقق إنصاف الإمام محمد عبده فقال: «... هل تعرفون حقيقة الشيخ النبهاني تماماً؟ الجواب: لا نعرف عنه إلا أنه من كبار العلماء وأعيان الصالحين. من أين لكم معرفة ذلك؟ الجواب: أننا عرفنا ذلك من مطالعة كتبه فكلها نافعة وغالبها في مدح النبي (صلى الله عليه وسلم). أرأيتم لو كتب عنه أحد العلماء بمصر بأنه زائغ مبتدع وفاسق ماذا كنتم صانعين في أمره؟ الجواب: لا نبالي بذلك. فقد عرفناه عالما صالحاً بكتبه. إذن لماذا لم تفعلوا ذلك في حق الشيخ محمد عبده فتطالعوا كتبه أولاً وتقرؤوا رسائله وكتاباته في الدفاع عن الإسلام...»[١٢].

وسنجد أن هذه المفاهيم والمؤثرات جميعاً تظهر بوضوح في شعره فهو في رثاء حافظ إبراهيم يذكر الإمام محمد عبده ويشيد بدور جمال الدين الأفغاني والتكامل الذي شكلاه حين يقول:

وقفتُ بين رسوم الدين أندبه
وقوف باك على آثار مُرتحلِ
وقلتُ: لولا (جمال الدين) قام به
لما وقفتُ على رسم ولا طللِ
ولو تخلف عنه (عبدُه) نفساً
لطار طائره من قبضة الأملِ

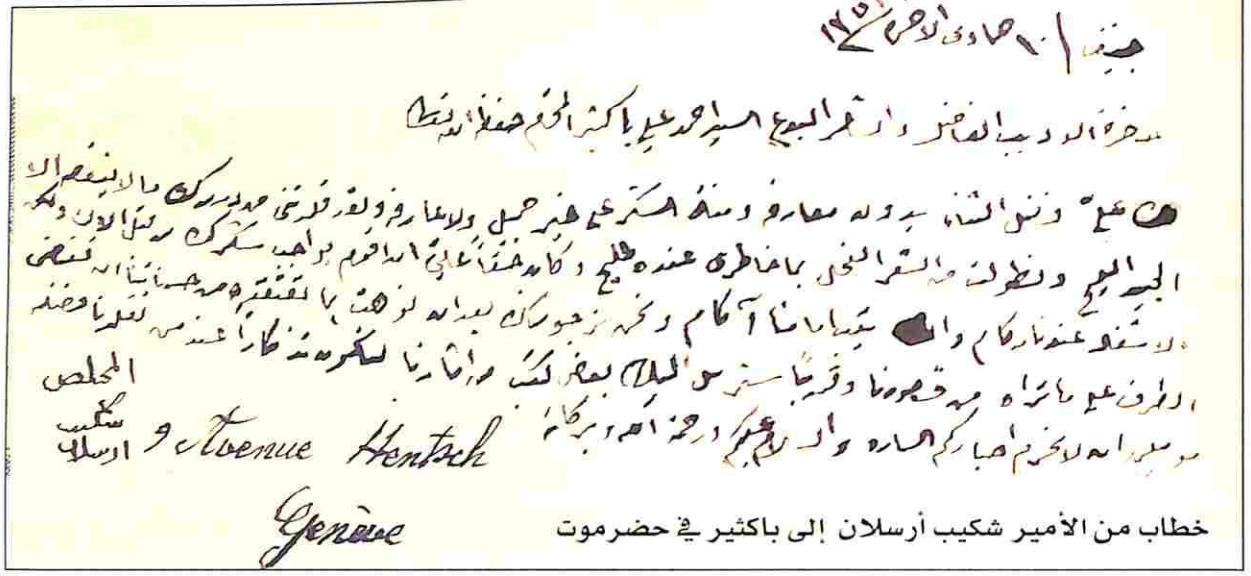

خطاب من الأمير شكيب أرسلان إلى باكثير في حضرموت

يا روح الله أرواحا سمت صعدا
من بعد ما حلت الإسلام من عطل
واستخرجته نقيا من معادنه
كالتبر ما فيه من طبع ولا دخل

ثم يدافع في القصيدة نفسها عن العقيدة السلفية النقية، ويرفض تهمة تعيير دعاتها بالوهابية:

والمصلحون إذا ما ذكروا اتهموا
من ماجن غزل أو شارب ثمل
يُعيرون (بوهابية) خلصت
أنقى من اللبن السلسال والعسل
وبينهم علماء السُوء في دعة
بالدجل عن واجب التذكير في شغل[١٣]

وبمقدار ما عانى باكثير في حضرموت على مستوى العقيدة والفكر ولم يلن عوده ولم تقهره العقبات والاعتراضات فقد عانى على مستوى العاطفة والقلب، ولم تسهل له الطريق في الزواج ممن أحب ولم تقهره العقبات عن هذا الجانب وإنما قهره الموت، فما كادت تمر على هذه السعادة والحيوية والنشاط ثلاث سنوات ونيف حتى تصاب ملهمته وزوجه الحبيبة بمرض عضال أقعدها لما يزيد عن ستة شهور حتى وفاتها في ١٣٥١/١/١٥هـ الموافق ١٩٣٢/٥/٢٠م، ولهذا قرر الهجرة من حضرموت فوصل عدن قادما من المكلا عبر البحر في ٢١/ ٢/ ١٣٥١هـ الموافق ٢٥/ ٦/ ١٩٣٢م. وغادر عدن التي أقام بها تسعة شهور إلى الحجاز بالمملكة العربية السعودية في ٢٩/ ١١/ ١٣٥١هـ الموافق ١٠/ ٣/ ١٩٣٣م، وذلك وفق وثيقة سفر حكومة الشحر والمكلا (السلطنة القعيطية الحضرمية فيما بعد) التي وصل بها عدن، وجواز السفر الهندي البريطاني الذي خرج به من عدن إلى الحجاز التي أقام بها حوالي أحد عشر شهرا ليلقي بعصا التسيار في مصر التي وصلها في ١٣٥٢/١٠/٢٨هـ الموافق ١٩٣٤/٢/١٣م. وهكذا كانت حياة باكثير العاطفية والفكرية في حضرموت مأساة مؤلمة ظلت آثارها مرتسمة على حياته وأدبه حزناً ودمعاً وشعراً، وسيكون لنا مع قصة الحب ومأساة الموت في حضرموت وقفة مستقلة، طويلة ومتأنية إن شاء الله ■

الهوامش:

(١) مسرحية (همام أو في بلاد الاحقاف). الطبعة الأولى.المطبعة السلفية.١٩٣٤م. القاهرة.ص٣١.

(٢) المصدر السابق ص٥٢.

(٣) من قصائده المخطوطة التي سننشرها في الطبعة الثانية من ديوان (أزهار الربا في شعر الصبا). تحقيق د.محمد أبوبكر حميد. دار المناهل بيروت. ط١. ١٩٨٧م. ص٨٧.

(٤) صحيفة التهذيب. العدد ٦ الصادر في ١٣٥٠/١/١هـ. مجموعة السنة الأولى. المطبعة السلفية. القاهرة.ص١١٥.

(٥) مسرحية همام أو في بلاد الاحقاف. مصدر سابق. ص٢٨.

(٦) جعفر محمد السقاف. حديث شخصي في سيئون بحضرموت في ١٥/ ٨/ ١٩٨٥م. راجع قصيدة باكثير (الأخلاق عند الغزالي) بديوان أهار الربا في شعر الصبا. ص٢٢٩.

(٧) البقية المخطوطة لديوان (أزهار الربا في شعر الصبا).

(٨) باكثير. علي أحمد. ديوان (سحر عدن وفخر اليمن). تحقيق د.محمد أبوبكر حميد. ط١. مكتبة المعرفة جده.٢٠٠٨م.ص١٠٣.

(٩) البقية المخطوطة لديوان (أزهار الربا في شعر الصبا).

(١٠) ديوان (سحر عدن وفخر اليمن). ص٩٨.

(١١) باكثير. علي أحمد. ديوان (أزهار الربا في شعر الصبا).

(١٢) صحيفة التهذيب. العدد الأول ١٣٥٠/٨/١هـ. مجموعة السنة الأولى. ص١٦.

(١٣) ديوان (سحر عدن وفخر اليمن). مصدر سابق. ص١٥٤.